صفحات من تاريخ المدينة المنورة

محسن أسدي

احتلّت مكة والمدينة مكانةً مقدسة في قلوب المسلمين وضمائرهم، واهتماماً كبيراً عندهم وعند غيرهم، لما لهاتين المدينتين من موقعٍ كبير في تاريخ الدعوة الإسلامية، فعلى ساحتيهما دارت أكثر أحداثها منذ نشوئها، وإلى يومنا هذا مازالت آثارها وثمارها قائمة؛ فظهور الدين الإسلامي وترعرعه وانتشاره منهما إلى بلدان العالم الأخرى جعل الأنظار تتوجه إليهما بحثاً ودراسة، إضافةً إلى مايترتب على تتبّع تاريخهما و العناية بهما وبشؤونهما ـ حفظاً ـ وعمراناً من أجرٍ لصاحبه وثواب عظيمين.

ولأن مكة تضم الكعبة، وهي بيت الله الحرام قبلة المسلمين في كل فرض أو مستحب ودعاء، والمدينة المنورة التي تضم مرقد رسول الله ﷺ خلق منهما حرمان مباركان يقصدهما الحجاج، والمعتمرون، والزوار، والباحثون، من كل أقطار الدنيا.

من هنا، جاءت كتابات وبحوث تاريخية، وميدانية، وجغرافية، واجتماعية، واقتصادية، وتقصٍّ لهما ولأحوالهما في عمق التاريخ من أولى اهتمامات الباحثين

والمحققين، فكثرت الكتب والمجلات والبحوث والمقالات، وأقيمت المؤتمرات والأنشطة الأخرى حولهما، حتى حظيت كل منهما (مكة المكرمة والمدينة المنورة) بما لم تحظ به أيّ مدينة أخرى في العالم.

وقبل أن نتحدّث عن تلك الصفحات التاريخية، عن مدينة رسول الله ﷺ نقف قليلاً عند اشتغال مؤرّخي المسلمين بهاتين المدينتين المقدستين، وبما تضمانه من الكعبة المباركة، والضريح المبارك لرسول الله ﷺ، اللذين صارا الباعث الحقيقي لكتاباتهم، وبحوثهم، وأنشطتهم، إذ لولاهما لماكان كلّ ذلك وغيره، حتى نالت دراسة هاتين المدينتين المنزلة الكبرى في دراسة تاريخ المدن الإسلامية، وغدت دراساتهم معالجات دينية، و تاريخية، وجغرافية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية رائعة، لواقع تلك المدن ولشعوبها، وجميع مفاصل حياتها...

نعم قد تكون بعض تلك الدراسات لم تأت بشيء ذي بال، إلا أن الحال مختلف جداً فيما تناولته بالنسبة لهاتين المدينتين مكة والمدينة، اللتين هما محل كلامنا دون غيرهما من المدن، موضحةً ما يتصل بهما دينياً و سياسياً واجتماعياً.. وما ظهر فيها من شخصيات دينية، وعلماء نحو ولغة، وقرّاء، ومفسرين، ومحدثين، وفقهاء، ومتكلمين، وشعراء، وأدباء، سواء أكانوا من الصحابة أو التابعين.

إن تاريخ هاتين المدينتين بدأ قبل بداية القرن الثالث الهجري، بل ظهر بعضها في أوائل القرن الثاني أو قبله:

كتاريخ مكة، للحسن البصري، الذي توفي سنة ١١٠ هجرية، وفي مكتبة تيمور، بدار الكتب المصرية نسخة منه.

وتاريخ المدينة لابن زبالة، الذي كان حياً سنة ١٩٩ هجرية.

ثم تاريخ مكة للأزرقي المتوفى سنة ٢٤٤ هجرية، فتاريخ المدينة لابن شبة، الذي عاش بين ١٧٣ ـ ٢٦٢ هجرية.

وفي مقالتنا هذه، نقف عند مدينة رسول الله ﷺ المدينة المنورة، يثرب قبل الهجرة وقديماً، وهي تعيش عمقاً تاريخياً نشأة وتطوراً، ثم قاعدةً للدين الجديد، وعاصمةً لدولة إسلامية واعدة رائدة...

يثرب في اللغة

يثرب: ثرّب بتشديد الراء، وثربه وأثرب: الكبش زاد شحمه، والثرب: شحم قد غشى الكرش والأمعاء رقيق، وفلان قلّ عطاؤه، وفلان منّ بما أعطى.

و ثرب: أفسد وخلط، وثرب فلاناً وعليه: لامه وعيّره بذنبه.

وأثربه: لامه وعيّره بذنبه. والتثريب: التعيير والاستقصاء في اللوم.

وفي التنزيل العزيز: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾. ويقال: ثرّب عليهم ـ بتشديد الراء ـ وثرب عليهم فعلهم: قبحه.

وثرّب بتشديد الراء: أفسد وخلط.

وثرّب عليه فعله ـ بتشديد ـ الراء ـ ثرب تثريباً: قبح عليه فعله أو قبحه[1].

هذا في اللغة

أما يثرب قديماً:

فقد انتشر اسمها في نقوش وكتابات غير عربية، كجغرافية بطليموس اليوناني، حيث إن (يثرب) كانت باسم يثربا YATHRIPA

وفي كتاب اسطفان البيزنطي باسم يثرب YATHRIP

كما ظهر اسمها في نقشٍ على عمودٍ حجري بمدينة حران (اتربو) ITRIBO

يثرب في القرآن الكريم والحديث:

وقد وردت لفظة يثرب مرةً واحدة إسماً قديماً للمدينة المنورة في قوله تعالى

(١) أنظر: مادة ثرب في لسان العرب، والمعجم الوسيط، ومختار الصحاح.

في سورة الأحزاب الآية ١٣، و على لسان بعض المنافقين:

﴿وَ إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا...﴾

أي لا يصحّ لكم الإقامة ههنا حول الخندق، فارجعوا إلى منازلكم.

أما إسمها الجديد، فقد ذكر في القرآن الكريم ثلاث مراتٍ، هي قوله تعالى:

﴿وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ...﴾[١]

وقوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ...﴾[٢]

وقوله تعالى:

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ...﴾[٣]

وقد ورد أن رسول الله ﷺ غيّر اسمها من يثرب إلى المدينة، ونهى عن استخدام اسمها القديم فقال: (من قال للمدينة: (يثرب) فليستغفرالله...)، وأيضاً سمّاها رسول الله ﷺ بأسماء أخرى في عددٍ من الأحاديث النبوية، أهمها: (طابة وطيبة)[٤].

بعد هذا، نقرأ صفحات قديمة عن تاريخها ،بدأ بمن سمّيت باسمه وظلّت تحمله طيلة حياتها قبل الإسلام، إنه واحد من أحفاد نبي الله نوح عليه السلام.

يثرب حفيد نوح عليه السلام

وقد أجمعت معظم المراجع العربية على أن (يثرب) إسمٌ لرجل من أحفاد

---

(١) التوبة: ١٠١.

(٢)التوبة: ١٢٠.

(٣) المنافقون: ٨.

(٤) أنظر: مسند الإمام أحمد ٤:٢٨٥؛ والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام؛ و وفاء الوفا.

نوح عليه السلام، وأن هذا الرجل أسّس هذه البلدة فسمّيت باسمه، وهو أمر معروف في الحضارات القديمة أن تسمّى المدن باسم مؤسسها، مثل الإسكندرية نسبة للإسكندر.

ولكن تلك المراجع اختلفت في عدد الأجيال التي تفصل الحفيد (يثرب) عن جده نوح عليه السلام، حيث جاء في بعض أسماء سلسلة الآباء والأبناء في المراجع أنّ (يثرب) وقع في الجيل الثامن بعد نوح، فهو: (يثرب بن قاينة بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح).

فيما جاء في بعضها الآخر أنه كان في الجيل الخامس: (يثرب بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح).

و مع اتفاق المؤرخين على أن القبيلتين: (عبيل والعماليق) قد سكنتا يثرب على التوالي، إلاّ أنهم يختلفون فيمن هي الأسبق، انطلاقاً مما تركه الخلاف في وقوع يثرب حفيد نوح عليه السلام في الجيل الثامن أو الخامس.

ولكن هناك من يرجّح أن قبيلة عبيل هي الأسبق، ثم جاء العماليق أو بعضهم فأخرجوهم منها وسكنوها؛ كما يقول الطبري:... ولحقت عبيل بموضع يثرب، ولحقت العماليق بصنعاء قبل أن تسمّى صنعاء، ثم انحدر بعضهم إلى يثرب فأخرجوا منها عبيل، فنزلوا موضع الجحفة فأقبل السيل، فاجتحفهم فذهب بهم فسميت الجحفة[1].

ومن خلال قراءة المصادر التاريخية وماكتب عن هذه المدينة، نستطيع أن نلخّص ما ذكرته تلك الأقلام بالنقاط التالية، والتي يمكننا تسميتها بالمراحل التي مرّت بها قبل أن تصل إلى ما وصلت إليه، حتى غدت مدينةً مقدسة ذات منزلة عظيمة وخالدة:

١ ـ لقد ذكرت المراجع التاريخية أن أبناء نوح بعد الطوفان تكاثروا ولم تعد

(١) أنظر: تاريخ الطبري ١:١٢٨، وفاء الوفا ١:١٥٦ ـ ١٦٥.

المنطقة التي نزلوها تكفيهم، فخرجت مجاميع منهم تبحث عن مكان آخر لها، فوصل فرع (عبيل) بقيادة (يثرب) إلى هذا الموضع، ووجدوا فيه ماءاً وشجراً وجبالاً بركانية تحيط به، وتشكّل حمايةً طبيعية له و لمن يسكنه، فأعجبهم واستوطنوا فيه.

ويقول النسّابون عن (عبيل) هذا: إنه هو الحفيد الرابع أو الحفيد السادس لنبي الله نوح عليه السلام[1].

وأما عبيل هذا، فهو في سفر التكوين: (عموبال) وهو أحد أولاد مقعان[2].

وقد أشار الدكتور جواد علي صاحب كتاب المفصّل ـ وهو يلتمس ما يثبت وجود قبيلة عبيل في الكتابات القديمة ـ أشار إلى وجود اسم عموبال في بعض أسفار التوراة التي تذكر أنه ابن من أبناء (يقطان)، كما أشار إلى أن المؤرخ بليتوس يذكر اسم موضع يقال له: (أباليتس) أي العبيليين.

وقد عاش عبيل وأقرباؤه من أبناء نبي الله نوح عليه السلام في منطقة بابل، التي عرفت بتطوّرها زراعياً ورعوياً إلى درجة جيدة، انعكست آثارها فيما بعد على يثرب، التي حلّوا فيها بعد وفاة نوح عليه السلام حينما أصبحوا ملوكاً على يثرب؛ وحدث هذا حينما سار فرع (عبيل) بقيادة يثرب ـ كما قلنا ـ من بابل مدة عشرين يوماً حتى وصلوا إلى موضع المدينة هذا، فنزلوه وسموه (يثرب) باسم قائدهم يثرب بن قاينة.

وقد أورد السمهودي في كتابه وفاء الوفا أبياتاً في رثاء هؤلاء العبيليين نسبةً إلى عبيل؛ يستشف من هذه الأبيات مدى تقدّمهم الزراعي والرعوي آنئذ، والذي ترك بصماته وآثاره على الوضع في يثرب.

تقول الأبيات:

---

(١) أنظر: تاريخ الطبري؛ وتاريخ ابن خلدون رواية السهيلي.

(٢) أنظر: الإصحاح الأول، الفقرة: ٢٢، والاصحاح العاشر، الفقرة: ٢٨.

عـين جـودي عـلى عـبيل وهـل يرجع مـن فـات بـيضها بـالسجام
عـمّروا يـثرباً وليس بـها شـفر ولا صـارخ ولا ذو سـنام
غـرسوا ليـنها بـمجرى مـعين ثـم حـفوا النـخيل بـالآجام

وإن كان هناك مـن يشكّك بهـذه الأبـيات وصـحتها، ويـعدّها مـن نحـل القصاصين وأساطيرهم، إلاّ أنها ـ ولا شك ـ رسمت صورةً ـ كما يذكرون ـ لاتباع عبيل تنسجم هذه الصورة مع ما جاء به، وكتبه المؤرخون عن أهل بابل وأنشطتهم الرعوية والزراعية؛ و إن أرض يثرب الخصبة، ووفرة المياه فيها، أمدّت العبيليين بما يساعدهم على زراعة النخيل، وتربية الحيوانات فيها.

إذن، يمكننا وصف الحالة يومذاك في يثرب ـ كما ذكرتها المراجع التاريخية ـ بأن هناك أسراً تسكن قريةً صغيرة كثيرة الأشـجار والمـياه، تـربي حـيوانـاتها المدجنة: الإبل، والخيل، والغنم، وتزرع النخيل وبعض الخضراوات، و الفواكـه الأخرى، وتستمتع بمحصولٍ وافر ونتاج جيد.. وفي شبه عزلة عن العالم الخارجي البعيد والمجهول، تحميها الجبال والتلال البركانية التي تحيط بالمنطقة ولا تترك منفذاً إليها سوى بعض الدروب التي يمكن مراقبتها وتحصينها.

٢ ـ إن أحد أحفاد نوح عليه السلام (واسمه نمرود بن كوش بن كنعان بن نوح)، دعا قومه إلى عبادة الأوثان، فاستجابوا له فعاقبهم الله، وخرجوا من بابل وتفرقوا في جهات مختلفة، ووصل فرع عبيل إلى هذه المنطقة.

٣ ـ إن العماليق من أحفاد نوح عليه السلام خرجوا من بابل، واستوطنوا منطقة تهامة إلى مكة، وبقوا فيها إلى زمن ملكهم السميدع، ثم جاءت قبيلة جرْهم فأخرجتهم من المنطقة وسكنت في منطقة مكة، وجاءت مجموعة منهم تسمى (عبيل) بقيادة يثرب، واستوطنت المنطقة وبنت المدينة التي سمّيت باسمه[1].

(١) أنـظر: المـفصّل فـي تـاريخ العـرب قـبل الإسـلام ١: ٣٤٣ ومـا بـعدها؛ تـاريخ الطـبري، الجـزء الأول، وفاء الوفا ١: ١٥٦.

وهكذا اتفقت المصادر المختلفة على أن تأسيس يثرب كان على يد رجلٍ يتزعم مجموعةً بشرية، هاجرت من موطنها الأصلي بابل في الرواية الأولى، وتهامة في الرواية الثانية، وقسم من الحجاز في الرواية الثالثة، تبحث عن موطن جديد يوفر لها حياةً كريمة، وأن هذه المجموعة وجدت في هذا الموقع أرضاً خصبة، وشجراً كثيفاً، وماءً وفيراً، ووجدت أن هذا الموقع أيضاً يوفر لها قدراً من الحماية الطبيعية، فاستقرّت فيه، وحولته إلى مدينة، وسمته باسم زعيمها: (يثرب).

٤ ـ ثم ظهرت مملكة سبأ في اليمن في عهد الدولة المعينية، وما إن قويت شوكة السبئيين حتى تمّ استيلاؤهم على معين وعلى نفوذها، وغدا سلطانهم ممتداً إلى مدينة يثرب، إلاّ أنه كان شبيهاً بنفوذ من كانوا قبلهم، وأقصد المعينيين، فلا يتعدى تعيين حاكم على يثرب ويكون هذا الحاكم من أهل يثرب نفسها؛ هذه هي المهمة الأولى، وأما الثانية فكانت تتمحور حول القوافل التجارية التي تمر عبر أراضيها.. لهذا فإننا لا نعثر على تغييرات في أهلها الذين بقوا مشغولين بالزراعة ورعي مواشيهم، فيما اشتغل بعضٌ منهم بتأمين ما تحتاج إليه القوافل التجارية والاستفادة من المتاجرة معها.

وقد عاصرت مملكة سبأ التي كانت بلقيس ملكةً عليها نبيّ الله سليمان بن داود عليه السلام ودولته، وآمنت بما يدعو إليه ـ بعد أن التقت به ـ حيث قالت ملكة سبأ كما صرّحت به الآية الكريمة: ﴿.. **رب إني ظلمت نفسي وأسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين**﴾[1].

وقد عمّرت مملكة سبأ كما أخبرنا القرآن الكريم: ﴿**لقد كان لسبإٍ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة وربّ غفور**﴾[2].

ثم وقع سيل العرم، حيث ضعفت وانهارت: ﴿**فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل**﴾[3].

وقد خرجت من مملكة سبأ قبل السيل بقليل قبيلتا: الأوس والخزرج، وهما قبيلتان معروفتان استوطنتا في يثرب.

كان لليهود وجود واضح في يثرب في العصر الجاهلي، كما تجمع على ذلك المصادر التاريخية، وتذكر روايات مختلفة لوجودهم المذكور، وتجمع أيضاً على أنهم جاؤوا إليها من خارج الجزيرة العربية في عدة هجرات متوالية:

الأولى: وقعت في سنة ٥٨٩ ق م، عندما اقتحم بختنصر البابلي أورشليم، ودمّر الهيكل وسبى معظم أهلها، فهرب جماعة منهم وساروا إلى بلاد الحجاز ونزلوا (يثرب).

الثانية: وقعت ما بين عامي ٦٦ ـ ٧٠م، عند ما هاجم القائد الروماني تيتوس فلسطين، ودمّر أورشليم ثانية، وشتتهم وأغرق عدداً كبيراً منهم في بحيرة لوط،

---

(١) النمل: ٤٤.

(٢) سبأ: ١٥.

(٣) سبأ: ١٦.

ففرّ الناجون إلى الحجاز، ووصلوا (يثرب)، وأقاموا فيها مع من سبقهم.

الثالثة: وقعت عام ١٣٢م عندما أرسل الإمبراطور الروماني هارديان، جيشاً إلى فلسطين، فأخرج اليهود منها، ومنعهم من دخولها نهائياً، ففرّ من نجا منهم إلى جزيرة العرب.

و(يثرب) في وقت مجيء اليهود الهاربين إليها كانت عامرةً بمجتمع يضمّ قبائل عربية، بعضها بقية من العماليق، وبعضها الآخر قبائل توافدت إليها من أطراف (يثرب) القريبة والبعيدة.

وأول من وصل (يثرب) من اليهود ثلاث قبائل هم:

بنو قريظة، ونزلوا عند وادي (مهزور).

وبنو النضير، ونزلوا عند وادي (بطحان).

وبنو قينقاع، و نزلوا في الوسط، ثم انتشروا في أخصب بقاع المنطقة.

ثم تبعت هذه القبائل الثلاث قبائل يهودية أخرى.

وقد سالم اليهود العرب المقيمين في يثرب أول الأمر، وأحسنوا التعامل معهم، وانهمكوا في زراعة النخيل، واتسعت زراعتهم وتجارتهم و الصناعات التي كانوا يتقنونها، هذا من ناحية؛ ومن ناحية ثانية راحوا يدفعون لرؤساء القبائل المجاورة لهم إتاوةً حتى يأمنوا ضررهم و مهاجمتهم، ومن ناحية ثالثة، راحوا يقيمون تجمعات مغلقة لهم، ويبنون حصونهم وآطامهم التي كثرت، وكل هذا جعلهم يستقرّون ويجمعون ثروات كبيرة، أما أحبارهم فقد كانوا يختصّون بالأمور الدينية ويحكمون فيما يقع بينهم من خصومات.

وانتشرت أنشطتهم تلك في الأطراف الشرقية والجنوبية من يثرب، ولم يتحمّسوا لنشر عقيدتهم بين القبائل العربية الوثنية، واكتفوا ببعض الأفراد والأفخاذ التي مالت إليهم ثم تهوّدت تدريجياً؛ و مالبثوا أن سيطروا على الحركة الاقتصادية، وأشاعوا القروض الربوية الفاحشة، وعندما وصلت قبيلتا الأوس

والخزرج المهاجرتين من اليمن، كانوا المتنفذين في يثرب، فطلبوا منهم أن يسمحوا لهم بالنزول في المناطق المجاورة لمزارعهم، وكان اليهود في حاجةٍ إلى الأيدي العاملة لاستثمار مزارعهم وثرواتهم المتزايدة، فسمحوا لهم بالنزول في المناطق غير المأهولة من يثرب، واستخدموهم في مزارعهم، وبدأت بمجيء الأوس والخزرج مرحلة جديدة من تاريخ يثرب[1]، نتعرف عليها في الفقرة الأخيرة، رقم: ١١.

٥ ـ هناك قبائل قديمة انقرضت، أطلق عليها اسم: العماليق؛ وقد ذكرت المراجع التاريخية أخباراً عنهم تمتزج بالأساطير، فإسمهم يوحي إلى الأذهان بضخامة أجسامهم، وقد دفع هذا الإيحاء بعض الرواة إلى المبالغة والتهويل، فنقل لنا السمهودي روايةً تزعم أن ضبعاً وأولادها وجدت رابضة في تجويف عين رجل ميّت من العماليق، وأنه كانت تمضي أربعمائة سنة لا يموت منهم أحد، ولا شك أن هذه الرواية وأمثالها من صنع قصّاصين يحرصون على استثارة جمهورهم بالخوارق والعجائب.

وبعيداً عن تلك المبالغات، فإن كلمة عملاق في اللغة تعني الطويل، ويبدو أن تلك القبائل كانت تتميّز بشيء من الطول والجسامة، ويرى بعض المؤرخين الحديثيين أن سكان الجزيرة العربية كانوا حتى عام ١٦٠٠قبل الهجرة ضخاماً، وبقي لهم أحفاد إلى ما بعد ذلك وعرفوا بهذا الاسم، وإن لم يكونوا يحملون ذلك القدر من الطول ولا يعمّرون ما يعمر أسلافهم.

والعماليق في كتب التاريخ العربية من أحفاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، كانوا يسكنون مع الأحفاد الآخرين لنوح في منطقة الرافدين، ثم خرجوا مع مجموعات أخرى، وتكاثر أحفاد نوح حتى زاحم بعضهم بعضاً.

وصل العماليق إلى الجزيرة العربية وانتشروا في أنحائها، وسكنت قبائلهم الكثيرة في نجد والبحرين وعمان واليمن وتهامة، وبلغوا أطراف بلاد الشام، وكان

(١) أنظر: وفاء الوفا ١: ١٦٥ – ١٥٩.

منهم فراعنة مصر أيضاً، ويذكر الطبري أن الذين سكنوا يثرب منهم هم من قبيلة جاسم.

ويذكر ابن خلدون قبائل أخرى هي: بنو لَفٍّ، وبنو سعد بن هزال، وبنو مطر، وبنو الأزرق. ولا نعرف متى استوطن العماليق في يثرب على وجه التحديد، وربما نزلوها بعد خروجهم من أرض الرافدين. وقد اختلف المؤرخون هل هم الذين أسّسوا يثرب أم قبيلة عبيل؟ وهل انتزعوها منهم؟ وهناك من يعتقد أن العماليق هم من عبيل نفسها؛ والذي يتفقون عليه هو أن وجود العماليق قديم في يثرب سواء في فترة التأسيس أو بعدها مباشرة، ومن المؤكّد أن العماليق وجدوا في يثرب قديماً، وأنهم عرب.

ويرى الطبري أن جدّهم عمليق هو أول من تكلّم العربية، كما أن أسفار التوراة ذكرتهم عدة مرات وسمتهم باسم العماليق حيناً وباسم الجبارين حيناً آخر؛ وذكرت أسماء بعض زعمائهم ومدنهم العربية، فقد عاصروا خروج بني إسرائيل من مصر، واصطدموا معهم في معارك عدة بمنطقة سيناء.

٦ ـ وقد أنشأ العماليق في يثرب مجتمعاً زراعياً ناجحاً يحقق الاكتفاء الذاتي، وانهمكوا في زراعة أراضيهم الخصبة وتربية ماشيتهم، وعاشوا حياتهم مستمتعين بوفرة محاصيلهم أول الأمر، وعندما نمت التجارة أسهموا فيها، ووصلت قوافلهم إلى غزة، ولكن تجارتهم بقيت محدودةً لا تعادل تجارة أهل مكة، وآثروا عليها الزراعة بسبب خصب أراضيهم وكثرة مياههم؛ وقد درّت عليهم أعمالهم الناجحة أموالاً طائلة، وخافوا من عدوان القبائل الأخرى التي تجدب أرضهم وتشحّ مواردهم فبنوا الآطام، وهي حصون صغيرة تتسع لعائلة أو بضع عائلات، وتحميهم من غارات الأعداء.

وقد عمّر العماليق في يثرب طويلاً، وقد وفدت عليهم قبائل أخرى سكنت معهم، فالوفرة التي وصل إليها العماليق جعلتهم يقبلون الوافدين إليهم ليستفيدوا

من العمالة الطارئة، فيخفف عنهم القادمون أعباء العمل في الأرض، ويجد أصحاب الأرض فرصةً للتمتع بثرواتهم، وما لبث الوافدون أن استثمروا بعض الأراضي التي لم يستثمرها العماليق في المنطقة، وتحولوا إلى ملاّك وأثروا وجاروا العماليق في حياتهم.

وخلال رحلة السنين الطويلة، حصل تزاوج وتمازج بين العماليق والقبائل الوافدة، وظهرت أجيال جديدة تحمل دماءً مختلطة، وما لبث العماليق المتميزون بضخامة الأجسام أن قلّ عددهم تدريجياً، ولكنهم لم ينقرضوا تماماً، بل بقيت منهم بقية إلى ما بعد وصول اليهود إلى يثرب، ويذكر المؤرخ العربي ابن زبالة أن بني أنيف، وهم حيٌّ أقاموا مع اليهود قبل وصول الأوس و الخزرج، كانوا من العماليق؛ وعندما وصل الإسلام إلى (يثرب) لم يكن قد بقي من هؤلاء إلا أفراد قلائل تميزوا بطول القامة.

٧ ـ الدولة الكلدانية نشأت في العراق وكانت عاصمتها بابل، وقد ازدهرت ومدّت نفوذها إلى مناطق واسعة في القرن السابع قبل الميلاد، ووصلت في فترة من الوقت إلى الحجاز؛ وقد عثر في خرائب مسجد حرّان الكبير على نقش يتحدث عن أعمال الملك الكلداني (نبونيد)، وفيها أنه خرج إلى شمالي الجزيرة العربية واستولى على تيماء واستقر بها، ثم استولى على المدن المجاورة وضمّها إليه، وهي: ددانو (مدينة قديمة معروفة ذكرتها الأسفار العبرانية)، وبداكوا (فدك)، وخبرا (خيبر)، واتريبوا (يثرب)، وظلت خاضعة لحكم هذا الملك عشر سنوات؛ ونبونيد هو آخر ملوك الدولة البابلية الكلدانية، حكم لمدة ١٦سنة (من سنة ٥٥٦ ـ ٥٣٩ق.م)، قضى عشر سنوات منها في شمالي الجزيرة العربية تاركاً عاصمته بابل تحت حكم ابنه (بلشازار)، ثم عاد إلى بابل ليدهمهم الملك الفارسي قورش (كُورُش) سنة ٥٣٩ ق.م، وينهي دولتهم ويجعلها ولاية تابعة لإمبراطوريته؛ وقد صالح أهل يثرب الملك نبونيد ودخلوا في طاعته سلماً بعد أن

ضعف سلطان الدولة السبئية، ودفعوا الضرائب التي كان يجبيها السبئيون منهم إليه.

أحضر نبونيد معه بعض القبائل الكلدانية والأسرى اليهود إلى المنطقة، وأسكنهم فيها وأعطاهم بعض الأملاك التي نزعها من أصحابها العرب وحماهم بقطعاتٍ من جيشه، وكان يخطط لإلحاق المنطقة كلها بمملكته، ولكن الخطة لم تنجح ومات مشروعه مع عودته إلى بابل، غير أن أكثر المستوطنين الجدد بقوا في المنطقة وامتزجوا مع أهلها، ويستدل على ذلك بوجود بعض الألفاظ الكلدانية في لغة أهل يثرب والمناطق الأخرى التي تقع إلى الشمال منها، وخاصة في الزراعة.

٨ ـ من المستحيل أن نجزم بسنة محددة نؤرخ بها تأسيس يثرب، فنحن لا نعرف على وجه اليقين كم من القرون تفصل بين نوح، والهجرة النبوية، وما ذكره بعض المؤرخين روايات شفهية لا تستند إلى دليل مرجح.. وكل ما يمكن أن نتوقعه هو أنه حدث في عهود سحيقة على أيدي أمم انقرضت، فعبيل أو العماليق، هي من الأمم البائدة، وليس لدينا آثار تساعدنا على تحديد فترة زمنية معينة للتأسيس، ويضع بعضهم تاريخاً تقريبياً يمتد إلى ١٦٠٠سنة قبل الهجرة النبوية، اعتماداً على أن قبيلة عبيل كانت تتكلم العربية، وأن اللغة العربية وجدت في ذلك التاريخ؛ ويقترب هذا التحديد من الزمن الذي وجدت فيه كلمة (يثرب) في الكتابات التاريخية عند غير العرب وفي بعض النقوش المكتشفة.

فقد ورد اسم يثرب في الكتابات عند مملكة (معين)، وذكرت بين المدن التي سكنتها جاليات معينية. ومن المعروف أن المملكة المعينية قامت في جزء من اليمن في الفترة ما بين ٦٠٠ و ١٣٠٠ قبل الميلاد، وامتد نفوذها في فترة ازدهارها إلى الحجاز وفلسطين، وعندما ضعف سلطانها كوّنت مجموعة مستوطنات لحماية طريق التجارة إلى الشمال، وكان هذا الطريق يمرّ بيثرب.

ويتفق هذا التاريخ التقريبي أيضاً مع التاريخ الذي يذكره المؤرخون لوجود

العماليق وحروبهم مع بني إسرائيل في شمال الجزيرة العربية وسيناء.

٩ ـ يرجّح الباحثون أن (يثرب) قد خضعت للمملكة المعينية وأصبحت واحدة من مناطق نفوذها، وتعد المملكة المعينية من أقدم الممالك العربية الجنوبية التي وصلتنا بعض أخبارها عن طريق المكتشفات الأثرية، ظهرت في شمالي اليمن وازدهرت وامتد نفوذها في الفترة ما بين ٦٣٠-١٣٠٠قبل الميلاد، وقد ذكرها بعض الجغرافيين الغربيين، مثل (تيودورس) الصقلي (وسترابون) الروماني، أما المؤرخون والجغرافيون العرب فلم تصلهم أخبارها.

يقول عنها ياقوت الحموي: معين: اسم حصن باليمن... ومدينة باليمن تذكر في براقش... قال عمرو بن معد يكرب:

ينادي من براقش أو معين فأسمع واتلاب بنا مليع

وتدل الآثار المكتشفة أن المملكة المعينية كان لها صلات وثيقة مع جاراتها تحوّلت إلى نفوذ وسيطرة، فامتدت سلطتها من جنوبي اليمن إلى الحجاز وحتى فلسطين؛ وقد وجد المنقّبون كتابات معينية تذكر أن يثرب، ومؤان، وعمون، وغزة كانت جزءاً من المملكة المعينية وأرضاً خاضعة لها، وأن ملوك معين كانوا يعيّنون حكاماً عليها باسمهم، ويلقب الحاكم (كبر) أي كبير، ويتولى الحكم باسم الملك، ويجمع الضرائب ويحافظ على الأمن، وهذا يعني أن المعينيين سيطروا على يثرب في فترة تمدّد مملكتهم، أي منذ الألف قبل الميلاد، وعينوا عليها حاكماً من أهلها كما كانوا يفعلون في مناطق نفوذهم الأخرى لتأمين طريق تجارتهم البرية، ولم تكن سلطتهم على المدينة تتعدى الضريبة السنوية المفروضة عليهم، فضلاً عن حماية قوافلهم، ولا نجد في الكتابات القليلة عن معين أي ذكرٍ لحروب خاضوها مع أهل يثرب، ولا أحداثاً متميزة؛ وجلّ ما نجده إشارات تبين أن سيطرتهم كانت على الحجاز بأكمله، ونظراً لضعف هذه السيطرة ظل المجتمع اليثربي مجتمعاً زراعياً ورعوياً في الغالب، ولم يشهد أية تغييرات كبيرة، أللهم إلاّ المزيد من

الاستقرار والانتعاش والفوائد التي تأتي بها قوافل التجارة العابرة.

١٠ ـ الدولة الرومانية وكان ظهورها قبل الميلاد بعدة قرون، واشتدّت قوتها فاستولت على ممالك الإغريق (اليونانيين القدماء) ومدت نفوذها إلى بقية أوروبا وغربي آسيا وشمالي أفريقيا، ولكن الرومان لم يستطيعوا التوغل في جزيرة العرب في فترة امتدادهم العسكري الكبير، لأن الصحراء الواسعة تشكل العقبة الكبيرة لجيوشهم النظامية الجرارة؛ ويذكر التاريخ الروماني محاولةً واحدة قامت فيها حملة رومانية باختراق الجزيرة العربية إلى جنوبها للوصول إلى مناطق الذهب في أرض اليمن، وقد جرت هذه المحاولة في عهد الإمبراطور (أغسطس) عام ٢٥ ق.م، حيث أمر هذا الإمبراطور واليه على مصر (أوليوس غالوس) بإعداد الحملة وقيادتها، ورافق الحملة جغرافي معروف هو (سترابون)، صديق القائد (غالوس) وكتب عنها، فوصلتنا أخبارها شبه كاملة.

خرجت الحملة بعشرة آلاف محارب روماني، وألف قبطي، وخمسمائة إسرائيلي، يرشدها أحد قواد الأنباط، وأبحرت من الساحل المصري للبحر الأحمر ووصلت إلى ميناء (لويكة كومة) (يقدر دكتور جواد علي أنها ينبع، بينما يرى فؤاد حمزة أنها مويلح)، بعد أن خسرت عدداً كبيراً من السفن والرجال، وفتك المرض بعدد آخر لفساد الطعام والماء وسوء الغذاء، فاضطرّت إلى قضاء الصيف والشتاء فيه حتى استراح الجيش وتعافى من المرض، بعدها تحركت الحملة إلى نجران، واجتازت عدة مدن وحاربت أهلها حتى بلغت مدينة مرسيبا (مأرب)، ومنها عادت إلى مدائن صالح، ثم أبحرت عائدةً إلى مصر، ولم تحقق الحملة أهدافها ولم تحصل على الذهب الذي خرجت لأجله، كما أنها لم تلحق المدن التي احتلتها بالدولة الرومانية.

وقد تعددت الآراء حول الطريق التي سلكتها الحملة بعد نزولها في (ينبع) أو (مويلح)، ومن بين تلك الآراء رأي يقرر أن الحملة سارت في طريق (إضم) إلى

(يثرب)، لكي تتجنب الاصطدام بالقبائل التي تسكن على الطريق التجاري بين ينبع والجنوب، وأنها تابعت طريقها من (يثرب) إلى (نجد)، ومنها سارت في طريق اليمن إلى نجران.

وذكر سترابون أن ملك تلك المنطقة، ربما كان شيخ قبيلةٍ يدعى الحارث، قد رحب بالرومانيين وساعدهم في اجتياز الطريق؛ وبناءً على هذه الرواية ـ وهي أرجح الروايات ـ فإن الحملة قد مرّت بيثرب واستراحت فيها قليلاً وتزودت بما يلزمها من الماء والطعام، فسترابون يذكر أن المنطقة كانت كثيرة العيون؛ ولاشك أن ذكاء الحارث وحسن تعامله مع قائد الحملة قد أفاد (يثرب) وبقية المدن التي مرت بها، فلم يتعرض الجيش لها بسوء، وربما يكون الحارث قد تفاهم مع شيوخ المنطقة ورؤسائها كي يتجنبوا الصدام مع الحملة.

وعلى أية حال، فإن الحملة لم تترك أثراً في (يثرب) أو في حياة اليثربيين، حتى إننا لا نجد لها ذكراً في كتابات المؤرخين القدماء، بل إن الرومانيين بعامة لم يؤثّروا في حياة يثرب وأبنائها على الإطلاق. وكان مرور الجيش الروماني في هذه الحملة هو العلاقة الوحيدة والعابرة معهم.

١١ ـ يتفق المؤرخون على أن الأوس والخزرج قبيلتان قحطانيتان، جاءتا من مملكة سبأ في اليمن على إثر خراب سدّ مأرب، وعندما وصلتا إلى يثرب أعجبتا بما

فيها من أرضٍ خصبة وينابيع ثرّة، وقد كان سكانها ـ وخاصة اليهود ـ في حاجة إلى الأيدي العاملة لاستثمار الأراضي، فسمحوا لهم بالنزول قريباً منهم بين الحرّة الشرقية وقباء، وكانت ظروف عملهم أول الأمر قاسيةً، وبمرور الزمن تحسنت أحوالهم، فبدأ اليهود يخافون من منافستهم، فتداعى عقلاء الطرفين إلى عقد حلف ومعاهدة يلتزمان فيها بالسلام والتعايش والدفاع عن يثرب إزاء الغزاة، فتحالفوا على ذلك والتزموا به مدة من الزمن، ازداد خلالها عدد الأوس والخزرج ونمت ثرواتهم، ففسخ اليهود الحلف، وقتلوا عدداً منهم وعملوا على إذلالهم.

وبقي الأوس والخزرج على تلك الحال إلى أن ظهر فيهم مالك بن العجلان الذي استنجد بأبناء عمومته الغساسنة في الشام، فاستجابوا له وأرسلوا جيشاً كسر شوكة اليهود فعادوا إلى الوفاق، وعاشوا فترةً أخرى حياة متوازنة، فعندما هاجم تبع بن حسان (يثرب)، وأراد تخريبها وقف الجميع في وجهه حتى رجع عن قصده وصالحهم، وفي هذه المرحلة من الوفاق تحرك أبناء الأوس والخزرج خارج الحزام الذي كانوا محتبسين فيه وبنوا المنازل والآطام في سائر أنحاء (يثرب)، وتوسعوا في المزارع، وصار لكل بطن من بطونهم مواقع كثيرة، حينئذ خطط اليهود لاستعادة سلطتهم عليهم بطريقة جديدة، ترتكز على التفريق بينهم وضرب بعضهم ببعض، فأعادوا التحالف معهم، وجعلوا كل قبيلة منهم تحالف واحدة من القبيلتين الأوس والخزرج؛ تمهيداً لإيقاع الفتنة بينهم، فتحالف بنو النضير وبنو قريظة مع الأوسيين، وتحالف بنو قينقاع مع الخزرجيين، وبدأت كل فئة يهودية تسعر النار في حليفتها على الطرف الآخر وتذكي العداوة والشقاق بينهما.

وما إن نجحت الخطة الماكرة حتى نشبت المعارك بين قبيلتي الأوس والخزرج، واشتعلت الحروب الطاحنة بينهما، ودامت قرابة مائة وعشرين عاماً، وكانت بدايتها بحرب سمير، ونهايتها بحرب بعاث، قبل الهجرة بخمس سنوات، وما بين هاتين المعركتين نشبت أكثر من عشرة حروب، وكان لليهود ـ كما ذكرنا ـ

دور في إثارتها وإذكاء أوارها؛ ولم تنته حتى جاء الإسلام فأطفأ رسول الله ﷺ العداء الخطير بينهما بعد هجرته ﷺ إليها كما سنرى؛ وأهم تلك الحروب والوقائع ما يلي:

حرب سمير، وحرب حاطب، و وقعة جحجبا، وموقعة السرارة، وموقعة الحصين بن الأسلت، وموقعة فارع، ويوم الربيع، وموقعة الفجار الأولى، والثانية، وموقعة معبس ومضرس، وحرب بعاث التي كانت آخر الحروب وأشدها عنفاً، حيث راح يستعد لها الفريقان: الأوس والخزرج، واستغرق هذا الإعداد أكثر من شهرين، تغذيه الأحقاد المتراكمة بينهما؛ وفي هذه الحرب تحالف الأوس مع بني قريظة وبني النضير، فيما تحالف الخزرجيون مع مزينة وأشجع، وخالفهم عبد الله بن أبي بن سلول.

وكانت بعاث هي منطقة التقائهما، واقتتلوا فيها قتالاً شديداً، وتضعضع الأوسيون وحلفاؤهم، وقتل عدد كبير منهم وبدؤا بالفرار، ولكن قائدهم حضير الكتائب ثبّتهم، فقاتلوا بشجاعة وهزموا الخزرجيين وحلفاءهم، وهمّوا أن يقضوا عليهم نهائياً حتى صرخ رجلٌ من الأوس: «يا معشر الأوس انسحبوا أو أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثعالب»، ويقصد بقوله هذا اليهود الماكرين.

وقبل هذه المعركة كان لهم لقاء برسول الله ﷺ لم يستثمروه؛ وهو ما جاء في الخبر الذي يقول: لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة، ومعه فتية من بني عبد الأشهل، فيهم أياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: هل لكم إلى خير مما جئتم به؟

قالوا: وما ذاك؟

قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى الله، أن يعبدوا الله، و لا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

فقال أياس بن معاذ ـ وكان غلاماً حدثاً ـ: هذا والله خير مما جئتم له... وإذا بأبي الحيسر، أنس بن رافع، يأخذ حفنة من البطحاء، ويضرب بها وجه أياس بن معاذ ويقول له: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا؛ فصمت أياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة.

وكان أياس هذا أصغر قومه إلاّ أنه يتمتع بعقل كبير وأدرك ما سيؤول إليه الأمر، إذا لم يأخذوا بما عرضه عليهم رسول الله ﷺ، وبه إنقاذهم من الدمار والهلاك الذي وقع فعلاً بعد عودتهم إلى يثرب، حيث وقعت حرب بعاث بين الأوس والخزرج، وقد حلّت الهزيمة بالأوس أول الأمر، ثم دارت الدائرة على الخزرج، ووضع فيهم السلاح حتى صاح من صاح: «يا معشر الأوس، أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثعالب». ويقصد بهم اليهود الذين مالبثوا يذكون نار الفتنة بين الفريقين سنين طويلة؛ ولم يسكت غضب الأوسيين حتى أضرموا النار اللاهبة في دور الخزرجيين ونخيلهم.

ويقول الطبري عن أياس: ثم لم يلبث أياس بن معاذ أن هلك.

قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومي عند موته: إنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه، حتى مات، فما كانوا يشكّون أن قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع.

وبعد تلك الواقعة سئموا الحرب، وكرهوا الفتنة، وأجمعوا أن يتوّجوا ـ بتشديد الواو ـ عبد الله بن أبي بن سلول ملكاً عليهم، ليستقروا ويأمنوا، وتنتهي الفتن والمعارك بينهم.

حقاً، لقد أحب اليثربيون محمداً رسول الله ﷺ، ومازال هو في مكة المكرمة. أحبوه حباً عظيماً منذ أن وفقوا لرؤيته، وشاء الله أن يشارك عدد من القبيلتين في بيعة العقبة الأولى، ثم في العقبة الثانية في مكة؛ فكان ذلك بداية لتأليف قلوبهم

وجمعها على الدين الإسلامي الحنيف كما نرى.

فقد التقى بستة من الخزرج، وتحدّث معهم، وسمعوا منه معاني الدين الجديد، ومبادءه القيمة، ومعالمه، ثم قال بعضهم لبعض: «هذا والله النبي الذي تتوعّدكم به اليهود».

كان اليهود يطلبون الفتح عليهم، بنبي يخرج بين عير واحد:

﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾[1]

ثم قالوا له: «إن بين قومنا شراً، وعسى الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك، فلا رجل أعز منك».

وصاروا رسلاً للدين الجديد، يحدّثون قومهم بما فتح الله عليهم عن الدين الجديد، والنبي الجديد الذي كانوا به يحلمون؛ وما إن حلّ العام المقبل حتى أتى منهم اثنا عشر رجلاً من سادة الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ ينتظرهم في العقبة، فكانت البيعة الأولى، وانتدب شاباً إنه مصعب بن عمير بن هاشم يعلمهم الدين وأحكامه: «إذهب يا مصعب على بركة الله».

ومصعب هذا المملوء إيماناً، و حيوية، ونشاطاً، وهجر حياته الناعمة المترفة بفضل ما عليه والداه من غنى وترف، هجر ذلك كله، والتحق بركب الصالحين المؤمنين، وكانت أولى المهمات أن كلّفه رسول الله ﷺ بأن يكون مبعوثه إلى يثرب، ويكون داعيةً لمهمة رسالية، أدّاها على خير وجه... إلى أن اختارته السماء شهيداً في معركة أحد، ورسول الله ﷺ وقف على قبره يرثيه: «لقد رأيتك بمكة وما أحد أرقّ منك حلة، ولا أحسن لمة، ثم أنت أشعث الرأس في بردة!». في أجواء من العداء التاريخي المرير بين قبيلتي الأوس والخزرج، يقف مصعب يؤدي رسالته، وهو يعلم جيداً أنّ تاريخاً مليئاً بالحروب والدماء والثارات، لا يمكن أن ينسى،

(١) البقرة: ٨٩.

والأعداء لا يريدون لهذا التآلف أن يتم، ولا يفرحهم الاتفاق بين العدوّين التاريخيين، حقاً كانت المسؤولية صعبة، والمهمة خطيرة، إلاّ أن هذا الشاب وفّق في عمله أيّما توفيق.

كيف تركت يثرب يا مصعب ؟

تركتها إسلاماً والحمد لله.. يا رسول الله !

وأخذت الدهشة ترتسم على جباه بعضهم: وكيف ذلك، ومنذ فترة كنا بيثرب يا رسول الله، ومازال اليهودي يهودياً والمشرك مشركاً والعداء بين الأوس والخزرج مستحكماً!

فيما راح مصعب يواصل إجابته: ألحمد لله يا رسول الله! ما تركت بيتاً في يثرب إلاّ ويتحدث بالإسلام ويتلو القرآن.

وخرجوا بعد مضي ثلث ليل بهم مستخفين، يتسللون حتى اجتمعوا بالعقبة، وبسطوا أيديهم لرسول الله ﷺ مبايعين، وهم يقولون: بايعنا على السمع والطاعة في يُسرنا وعسرنا، في النشاط، والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا فيه لومة لائم، وعلى نصرتك إذا قدمت علينا يثرب، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، وأزواجنا، وأبناءنا.

وهكذا راحت هذه البلدة الطيبة تبدأ حياةً جديدة، بحلة جديدة، وعهد رائع، ودين خالد؛ فما إن حلّ نهار يوم الجمعة من شهر ربيع الأول حتى علت أصواتهم رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً بأنشودةٍ تبشر بقدوم رسول الله ﷺ، وتبتهج بطلعته المباركة عليهم، وتنطلق أنشودتهم الجميلة والبسمة تعلو جباههم وشفاههم:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

إذن، هاجر رسول اللهﷺ إليهم، و أطفأ العداوة بين القبيلتين نهائياً، وصاروا بفضل الله إخواناً ﴿... **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً...**﴾، وبدأت صفحة جديدة من تاريخ يثرب، إنه تاريخ المدينة المنورة ﴿**وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم**﴾[1].

(١) الأنفال: ٦٣.